عـــرب يكرهـــون أنفسهـــم

أ.د. محمـد أحمـد النابلسـي – الطب النفسي – لبنـان
E. mail : nabulsy@cyberia.net.lb
مركز الدراسات النفسية والنفسية الجسدية

من الشروط الأساسية لتطور أي أمة، أو مجتمع، شرط القدرة على تطوير النظم الرمزية € اللغة، نمط العلاقات الاجتماعية، التقاليد والأعراف... الخ € السائدة بين أفراده وجماعاته.
وهذا التطوير لا يمكنه أن يتحقق من دون مخالفة السائد والمألوف، حتى يصير الخلط سهلاً بين المصلحين وبين معادي المجتمع.

هذا النوع من الخلط هو المسؤول عن اغتيال العديد من المصلحين في تاريخ البشرية، منذ الحكم على سقراط بتجرع كأس السم ولغاية موجات التكفير والتخوين السائدة في مجتمعنا العربي منذ قرون، والمتجددة في محطات التحول العالمية، لذلك وجب علينا وضع الحدود لهذه الموجات، التي لا تكتفي بحرماننا فرص الحوار من اجل التطوير بل هي تزيد في تعميق تناقضاتنا وخلافاتنا.
علينا أن نراجع بعض المبادئ والمسلمات السيكولوجية وتذكرها كخطوة أولى، ومن هذه المبادئ:

1- **النبذ الاجتماعي**: وهذا النبذ هو المسؤول غالباً عن معاداة المجتمع لدرجة الاستعداد لخيانته، وهنا علينا الاعتراف بأننا من اكثر الأمم قدرة على النبذ والتفنن فيه.
2- **الفئات الهامشية**: هذه الفئات المنبوذة تكون غالباً محط اهتمام محاولات اختراق المجتمع. وهنا أيضا نفرق بين محاولات اختراق سليمة النية وأخرى معادية للمجتمع.
3- **استيراد العناصر الثقافية**: حيث عجزنا عن إنتاج عناصرنا الثقافية الخاصة واستيرادنا لهذه العناصر، بدءاً من لعب أطفالنا ولغاية أدوية عجائزنا وخطط رعايتهم.
4- **العنف الاجتماعي**: حيث الصراعات الداخلية تكاد تهـدد كل الدول العربية، تدعمها العصبيات والانتماءات الفرعيـة، التي تعكس عجز التكامل الثقافي والاجتماعي.

أمام هذه المعطيات مجتمعة لا بد لنا من التقرير بوجود قوائم طويلة من الأعذار والتبريرات لغالبية أشكال الخروج علـى معـايير الـنظم الرمزية الخاصة بمجتمعنا العربي.

وحتى لا يكون كلامنا مغرقاً في النظرية فإننا نعطي بعض الأمثلـة العملية الدالة على وجوب التريث في الأحكام، بل والتخلي عن التكفيـر والتخوين، ومن الأمثلة:

- **عزمي بشارة**: الذي نظر إليه لمدة طويلة على انه جاسـوس إسرائيلي بدرجة نائب في الكنيست الإسرائيلي، وبعـد ذلـك نكتشف فيه مناضلاً صلباً؟!
- **مروان البرغوثي**: وهو من أوائل دعاة التطبيع مع إسرائيل، وهو نبذ لفترتها لهذا السبب، ثم تحول إلى بطل بعد اعتقاله ومحاكمته.
- **ادوار سعيد**: الذي استقبل ببرود وتحفظ في البداية، ثم تحول إلى ناطق باسم المثقفين العرب في أميركا.

وتطول قائمة الشخصيات التي تغيرت المواقف منها بتغير اللحظة السياسية وظروفها. وهذه الوضعية تشبه إلى حد بعيد وضعية يهود أوروبا بعد أزمة تكفيرهم للفيلسوف اليهودي سبينوزا، درجة الشبه هو استهداف الجماعة
بمصالحها واستمراريتها.
يومها اتخذ اليهود قرارهم بإلغاء تهمة التكفير حفاظاً علـى تلاحـم الجماعة، وعندما عادت لليهود بعض القوة أطلقوا بـديلاً للتكفيـر هـو عبارة عن تهمة «**اليهودي الذي يكره نفسه**»، وقد يكون من المناسـب أن نصل إلى هذا **الحد الأدنى من خفض سقف التكفير والتخوين السائد بيننا**.

ونحن ندرك مدى **صعوبة هذا الاستبدال المتساهل** أمام حدة بعـض التظاهرات العدوانية ضد الأمة والمجتمع من قبل أفراد ينتمون إليهـا، ويفترض أن يردعهم هذا الانتماء ويخفف من حدة عدائهم، بغض النظر عن الدوافع الكامنة لهذا العداء.

ويبقى تحديد **معايير كره الذات** عند العرب، وهو موضوع يحتـاج إلى **مراجعة شاملة للشخصيات التي وقعت ضحية التخوين والتكفيـر**، للإفادة من هذه التجارب، وربما أمكن إعادة الاعتبار لبعضهم في مثـل هذه المناسبة.

ونفتتح الحوار **باستبعاد الزعامات الحزبية والسياسية عامـة**، لأن طرح مثل هذه الحالات للنقاش كفيل بتفجير كل التهم والتناقضات وربما الشتائم، وعلى هذا الأساس **نحصر النقاش بالمثقفين العـرب**، بـادئين بترشيح بعض الأسماء كنماذج للعربي الذي يكره نفسه، ومنهم:

1- **الدكتور سعد الدين إبراهيم**: وسبب ترشيحه هو قبولـه بـأن يكون شخصه سبباً في الضغط على مواطنيه في لقمة عيشهم. وتهديد أميركا بوقف المساعدات لمصر بـسببه، فهـل تـراه يشعر بالقوة والجبروت عبر الدعم الأميركـي لـه بتجويـع مواطنيه؟
2- **العفيف الأخضر** : ودافع ترشيحه اضطرابه النفـسي الـذي يجعله يصف المثقفين العرب بالزبالة من على منبر الجزيرة، وهو يتفنن في تحقير ذاته ومجتمعه بصورة مازوشية بعيـدة عن السواء، والغريب انه يعود إلى رشده عندما يحس بالخطر نتيجة بعض مظاهر قوة الانتماء العربي.
3- **المتعاملون الفلسطينيون مع الشاباك** : حيث ضـخامة عـدد هؤلاء يحولهم إلى ظـاهرة، هـي نتـاج القهـر والعـدوان الإسرائيلي، المؤدي للتوحد بالمعتدي، ومع ذلك فـإن علـى هؤلاء أن يحسوا بأنهم يكرهون أنفسهم وهم يتعـاملون مـع عدوهم.

إنها قضية مطروحة للنقاش بإلحاح، سواء من حيث تحديد معـايير كره الذات، أو من حيث ترشيح أولئك العرب الذين يـسيئون لأنفـسهم وأمتهم.